الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين .

أما بعد :

يقول رحمه الله تعالىٰ :

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ بِهَذَا الْإِيمَانِ الْعَامِّ الشَّامِلِ، وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الانْقِيَادِ وَالاسْتِسْلَامِ، وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ مَنْ قَامَ بِهِ، فَقَالَ فِي أَعْظَمِ آيَاتِ الْإِيمَانِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

فَأَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِالْإِيمَانِ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأُصُولِ الْعَظِيمَةِ، وَالْإِيمَانِ الشَّامِلِ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ، وَبِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ، وَبِالْإِخْلَاصِ وَالاسْتِسْلَامِ وَالانْقِيَادِ لَهُ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

فهذه الآية الكريمة التي أوردها رحمه الله تعالىٰ شأنها كما وصف ، من أعظم آيات الإيمان في كتاب الله تبارك وتعالىٰ ، وقد أمر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ودعا عباده ؛ إلىٰ الإيمان بالمنزَّل علىٰ أنبياءه ورسله الكرام عليهم صلوات الله وسلامه ، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

وهذا فيه فائدة ينبغي أن يتنبه لها كل مسلم ألا وهي ؛ أن العقيدة التي يرضىٰ جل وعلا عن عباده بإعتقادها هي العقيدة المنزَّلة من الله ، أما العقائد التي يخترعها الناس في الأرض وينشئونها من أفكارهم وعقولهم وآرائهم ، فكل ذلك لا يقبله جل في علاه ، قد قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ

دِينًا﴾ فلا يرضىٰ جل وعلا إلا الدين المنزَّل الذي نزل به وحيه تبارك وتعالىٰ ، وأما ما اخترعه الناس بآرائهم وعقولهم وأهوائهم فكل ذلك لا يقبله الله سبحانه .

ففي هذه الآية الكريمة دعا الله سبحانه وتعالىٰ عباده إلىٰ الإيمان بالمنزَّل علىٰ الأنبياء ، وهذه الآية تفيد أن دين الأنبياء واحد ، عقيدتهم واحدة ، لا اختلاف بين نبي وآخر في العقيدة ، العقيدة واحدة ، لكن قد يكون الإختلاف بين نبي وآخر في الشرائع والأعمال والتكاليف ، كما قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أما العقيدة واحدة لدىٰ جميع الأنبياء كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : [نحن الأنبياء أبناء علاّت ديننا واحد وأمهاتنا شتىٰ] ومعنىٰ أمهاتنا شتىٰ أي الشرائع تختلف من نبي إلىٰ آخر ، أما العقيدة فهي واحدة لدىٰ جميع النبيين ، فهذه الآية فيها الدعوة إلىٰ الإيمان بالمنزّل وحي الله تبارك وتعالىٰ علىٰ أنبياءه ورسله الكرام ، وختمت بقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ ، ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ ثم ختمت في تمامها ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

أي منقادون مستسلمون لأمره فاعلون لكل ما يأمرنا به ، ويدعونا للقيام به ، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

قال رحمه الله تعالىٰ : **(اللهُ عِبَادَهُ بِالْإِيمَانِ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْأُصُولِ الْعَظِيمَةِ، وَالْإِيمَانِ الشَّامِلِ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ، وَبِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ، وَبِالْإِخْلَاصِ وَالاِسْتِسْلَامِ وَالاِنْقِيَادِ لَهُ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾)**

هذه الآية جاءت في أوائل سورة البقرة ، وليس في أولها ولم تختم السورة الكريمة إلا بإخبار الله سبحانه وتعالىٰ عن إيمان المؤمنين بهذا الإيمان الذي أمرهم به في أثناء السورة ، ففي أثناء السورة في الجزء الأول منها أمرهم سبحانه وتعالىٰ بهذا الإيمان الشامل ، وفي تمامها لم يختمها تبارك وتعالىٰ حتىٰ أخبر بإيمان النبي الكريم عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بهذه الأمور التي دعاهم جل وعلا للإيمان بها في الآية التي ذكرها رحمه الله تعالىٰ عقب هذه الآية .

قال رحمه الله :-

(كَمَا أَثْنَىٰ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ -فِي آخِرِ السُّورَةِ- بِالْقِيَامِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ

ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].)

أي أنه سبحانه وتعالىٰ في أثناء السورة أمرهم بالإيمان والاستسلام ، وفي تمام السورة قبل أن يختمها جل وعلا أخبر بأنهم آمنوا واستسلموا ، أخبر أنهم آمنوا واستسلموا ، أما الإخبار عن إيمانهم ففي قوله ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ وأما الإخبار عن استسلامهم الذي أمرهم به بقوله ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ في الآية الأولىٰ ، ففي قوله : ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ ففي هذه الآية مع الآية التي تليها واللتين ختمت بهما سورة البقرة ، جاء عن نبينا صلىٰ الله عليه وسلم ما يدل علىٰ مشروعية قراءتهما كل ليلة ، وأن من قرأهما في ليلة كفتاه أي من كل شر وسوء ، مما يدل علىٰ عظم شأن هاتين الآيتين واستحباب قراءتهما كل ليلة ، وهذه الآية جمعت أصول الإيمان التي عليها قيام دين الله تبارك وتعالىٰ ، قال : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ ثم قال في تمامها﴿ وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ وهذا الإيمان باليوم الآخر ، فجمعت هذه الآية الكريمة أصول الإيمان كلها ، الإيمان بالله والإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب والإيمان بالرسل والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالقدر لم يذكر في ضمن هذه الأصول لأنه داخل في الإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ ، فالإيمان بالقدر هو الإيمان بقدرة الله وعلمه ومشيئته وأنه تبارك وتعالىٰ رب العالمين ، الخالق للخلق أجمعين لاشريك له سبحانه وتعالىٰ في شيء من ذلك ، وقوله (سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ)هذا فيه الاستسلام لأمر الله ، والإنقياد والطاعة الإمتثال ، (سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ) سمعنا : ما جاء عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام ، سماع قبول وإذعان ، وأطعنا ممتثلين ما أمرنا به جل وعلا ، وما دعانا إلىٰ القيام به .

قال رحمه الله تعالىٰ :

فَأَخْبَرَ أَنَّ الرَّسُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، آمَنُوا بِهَذِهِ الْأُصُولِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، بَلْ آمَنُوا بِهِمْ جَمِيعًا، وَبِمَا أُوتُوهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَنَّهُمُ الْتَزَمُوا طَاعَةَ اللهِ، فَقَالُوا: «﴿ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ »، وَطَلَبُوا مِنْ رَبِّهِمْ أَنْ يُحَقِّقَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنْ تَقْصِيرِهِمْ بِبَعْضِ حُقُوقِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ مَرْجِعَ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ وَمَصِيرَهُمْ إِلَىٰ اللهِ، يُجَازِيهِمْ بِمَا قَامُوا بِهِ مِنْ حُقُوقِ الْإِيمَانِ، وَمَا ضَيَّعُوهُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ – أَتْبَاعِ عِيسَىٰ وَغَيْرِهِ– إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ]،

فَآمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَالْتَزَمُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَانْقَادُوا بِجَوَارِحِهِمْ، وَسَأَلُوا اللهَ أَن يَكْتُبَهُمْ مَعَ الشَّاهِدِينَ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ، وَأَنْ يُحَقِّقَ لَهُمُ الْقِيَامَ بِهِ؛ قَوْلًا، وَعَمَلًا، وَاعْتِقَادًا.

قوله رحمه الله تعالىٰ : (**الْتَزَمُوا طَاعَةَ اللهِ، فَقَالُوا: «﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ »، وَطَلَبُوا مِنْ رَبِّهِمْ أَن يُحَقِّقَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنْ تَقْصِيرِهِمْ بِبَعْضِ حُقُوقِ الْإِيمَانِ**) لأنهم أتبعوا ذلك بقولهم (غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا) وهذا فيه سؤال الله تبارك وتعالىٰ المغفرة ، والعفو والتجاوز عما يكون من العبد من تقصير ، والتقصير لابد منه ، ولهذا شُرع لنا في تمام الطاعات الاستغفار ، مثل ما جاء في الاستغفار ثلاثـاً أدبار الصلاة ، ومثل ما جاء من الاكثار من الاستغفار في تمام الحج ، والاستغفار في تمام المجلس ، هذا كله لأن العبد لا يخلو من تقصير ، لا يخلو من تقصير في عبادته وفي مجالسه ، مهما جاهد نفسه لابد من التقصير ، ولهذا قالوا (سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا) أي اغفر لنا يار ب ما يكون منا من تقصير وتفريط وخطأ وزلل ، ﴿ وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ أي مرجعنا إليك ، وهذا فيه كما تقدم الإيمان باليوم الآخر ، وذكر رحمه الله تعالىٰ أن نظير ذلك قول الله سبحانه فيما ذكره عن أتباع الأنبياء عيسىٰ وغيره ، أنهم قالوا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ هذا الجانب الأول ، جانب الإعتقاد والإيمان ،﴿ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ هذا الجانب الثاني جانب الامتثال والانقياد ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾

أي لله بالتوحيد والانقياد والوحدانية .

قال رحمه الله تعالىٰ : (**وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾[سُورَةُ الأَنفَالِ].

فَوَصَفَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْقِيَامِ بِأُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ؛ فَإِنَّهُ وَصَفَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ إِيمَانًا ظَهَرَتْ آثَارُهُ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَأَنَّهُ -مَعَ ثُبُوتِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ- يَزْدَادُ إِيمَانُهُمْ كُلَّمَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ، وَيَزْدَادُ خَوْفُهُمْ وَوَجَلُهُمْ كُلَّمَا ذُكِرَ اللهُ.

وَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ وَسِرِّهِمْ مُتَوَكِّلُونَ عَلَىٰ اللهِ، وَمُعْتَمِدُونَ فِي أُمُورِهِمْ كُلِّهَا عَلَيْهِ، وَمُفَوِّضُونَ أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ. وَهُمْ -مَعَ ذَلِكَ- يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ فَرْضَهَا وَنَفْلَهَا، يُقِيمُونَهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُنْفِقُونَ النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةَ وَالْمُسْتَحَبَّةَ، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ هَذَا الْوَصْفِ؛ فَلَمْ يُبْقِ مِنَ الْخَيْرِ مَطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ هَذَا الْوَصْفَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَيُحَقِّقُونَ الْقِيَامَ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. ثُمَّ ذَكَرَ ثَوَابَهُمُ الْجَزِيلَ: الْمَغْفِرَةَ الْمُتَضَمِّنَةَ لِزَوَالِ كُلِّ شَرٍّ وَمَحْذُورٍ، وَرِفْعَةَ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ الْمُتَضَمِّنَ مِنَ النَّعِيمِ؛ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

وهذه الآية الكريمة فيها وصف الله جل وعلا للمؤمنين الكُمَّل الذين كملوا إيمانهم ، ولهذا لما ذكر سبحانه وتعالىٰ أوصافهم ختم ذلك بقوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ إشارةً إلىٰ تكميلهم للإيمان ، وتتميمهم لمقاماته ، فقوله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد به الكُمّل ، الذين كملوا الإيمان وتمموه ، فذكر أوصافهم بما يدل علىٰ قيامهم بالدين والإيمان أصوله وفروعه ، ظاهراً وباطناً ، سراً وعلناً ، أما القلوب ففيها الخوف والخشية من الله سبحانه وتعالىٰ ، وحسن التوكل عليه جل وعلا ، وأما الجوارح فهي قائمة بالطاعة والامتثال ولاسيما فرائض الإسلام العظيمة ، وأعظم ذلك الصلاة ، ثم الزكاة ، فهم قائمون بذلك علىٰ التمام والكمال ، منقادون لأمر الله جل وعلا ، فلما أثنىٰ عليهم بذلك وذكرهم بهذه الأوصاف ، ختم بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لما كان منهم من تكميل للإيمان ، وتتميم لمقاماته العظيمة ، ثم ذكر تبارك وتعالىٰ ثوابهم الجزيل بقوله ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ قوله جل وعلا في وصف هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وذلك لما قام في قلوبهم من معرفةٍ عظيمة بالله ، وبأسمائه جل وعلا وصفاته العليا ، فإذا ذكر الله وجلت قلوبهم : أي خافت ووقع فيها الخشية من الله سبحانه وتعالىٰ ، وذلك لعظم معرفتهم بالله وأسمائه وصفاته ، كما قال الله عز وجل ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فكلما ازداد العبد معرفة بالله وأسمائه وصفاته سبحانه زاد خشيةً منه ، وخوفاً منه جل في علاه ، قال : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وهذا في جملة أوصاف المؤمنين الكمل أن قراءتهم وسماعهم لآيات الله تبارك وتعالىٰ مما يزيدهم إيماناً علىٰ إيمانهم ، كما قال الله عز وجل ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤﴾ فالمؤمن لآيات الله سبحانه وتعالىٰ وقعها في نفسه وأثرها العظيم علىٰ قلبه ، فكلما تلا كتاب الله متدبراً متأملاً لمعانيه ودلالاته إزداد بذلك إيمانه ، وهذا يستفاد منه أن القرآن الكريم من أعظم أبواب زيادة الإيمان لمن يوفقه الله سبحانه وتعالىٰ لحسن تلاوته متدبراً لمعانيه ودلالاته ، كما قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿أَفَلَا

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

وذكر في صفاتهم أنهم علىٰ ربهم يتوكلون ، قال : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ أي أنهم يفوضون أمورهم كلها إلىٰ الله عز وجل

معتمدين بقلوبهم عليه ، مفوضين أمرهم إليه سبحانه وتعالىٰ ، عالمين بأن سدادهم في أمورهم ، وتوفيقهم في مصالحهم ونجاتهم من المهالك وتحقق المصالح لهم كل ذلك بيد الله جل وعلا ، فهم مفوضون أمورهم كلها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ، ثم مع ذلك محافظين علىٰ الصلاة مقيمين لها فرضها ونفلها ، مؤدين الزكاة منفقين في سبيل الله تبارك وتعالىٰ فأهل هذه الأوصاف العظيمة هم المؤمنون الكُمّل لهذا قال الله عز وجل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ جعلنا الله أجمعين منهم بمنه وكرمه وفضله .

<u>قال رحمه الله تعالىٰ :</u>

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ]. فَفَسَّرَ اللهُ الْإِيمَانَ -فِي هَٰذِهِ الْآيَاتِ- بِجَمِيعِ هَٰذِهِ الْخِصَالِ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِفَلَاحِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾، إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ.

فَمَنِ اسْتَكْمَلَ هَٰذِهِ الْأَوْصَافَ فَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقًّا، وَمَضْمُونُهَا: الْقِيَامُ بِالْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَاجْتِنَابُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَبِتَكْمِيلِهِمْ لِلْإِيمَانِ؛ اسْتَحَقُّوا وِرَاثَةَ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ الَّتِي هِيَ أَعْلَىٰ الْجَنَّاتِ، كَمَا أَنَّهُمْ قَامُوا بِأَعْلَىٰ الْكَمَالَاتِ.

وَهَٰذِهِ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ يَشْمَلُ عَقَائِدَ الدِّينِ، وَأَخْلَاقَهُ، وَأَعْمَالَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ؛ أَنَّهُ يَزِيدُ بِزِيَادَةِ هَٰذِهِ الْأَوْصَافِ وَالتَّحَقُّقِ بِهَا، وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا، وَأَنَّ النَّاسَ فِي الْإِيمَانِ دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ هَٰذِهِ الْأَوْصَافِ.

وَلِهَٰذَا كَانُوا ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ:

سَابِقُونَ مُقَرَّبُونَ: وَهُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَفُضُول

الْمُبَاحَاتِ.

وَمُقْتَصِدُونَ: وَهُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِالْوَاجِبَاتِ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ.

وَظَالِمُونَ لِأَنفُسِهِمْ: وَهُمُ الَّذِينَ تَرَكُوا بَعْضَ وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ، وَفَعَلُوا بَعْضَ الْمُحَرَّمَاتِ.

كَمَا ذَكَرَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾[سورة فاطر].)

الشرح :

قول الله عز وجل في أول سورة المؤمنون ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ ثم ذكر أوصافهم سبحانه وتعالىٰ ، المراد بالمؤمنين هنا ، أي : المؤمنون الكُمّل الذين كملوا الإيمان ، والمراد بالفلاح الذي تحقق لهؤلاء أي حيازة الخير ، لأن كلمة الفلاح ، أفلح ومفلحون تعني حيازة الخير في الدنيا والآخرة ، فهؤلاء أهل هذه الأوصاف المذكورات في هذا السياق الكريم هم من حازوا الخير كله في دنياهم وأخراهم ، سعادة في الدنيا ، ونجاة وفوزاً يوم القيامة .

ومن يتأمل هذه الأوصاف يجد أنها دالة علىٰ قيامهم بالدين إمتثالاً لأمر الله وطاعة له سبحانه وتعالىٰ وبعداً عن ما نهىٰ عنه وحرمه علىٰ عباده ، فذكر في أوصافهم المحافظة علىٰ الصلوات ، وذكر سبحانه وتعالىٰ في أوصافهم بذل المال ، وإيتاء الزكاة ، وذكر في أوصافهم حفظهم للفروج ، وبعدهم عن الفواحش والرذائل ، وذكر في أوصافهم أدائهم للأمانة ووفائهم للعهد ، إلىٰ غير ذلك مما ذكر سبحانه وتعالىٰ في أوصاف هؤلاء ، ثم ختم ذلك في السياق بقوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

قال رحمه الله تعالىٰ : **(فَفَسَّرَ اللهُ الْإِيمَانَ -فِي هَذِهِ الْآيَاتِ- بِجَمِيعِ هَذِهِ الْخِصَالِ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِفَلَاحِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾، إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ ، فَمَنِ اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ فَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقًّا، وَمَضْمُونُهَا: الْقِيَامُ بِالْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَاجْتِنَابُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَبِتَكْمِيلِهِمْ لِلْإِيمَانِ؛ اسْتَحَقُّوا وِرَاثَةَ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ الَّتِي هِيَ أَعْلَىٰ الْجَنَّاتِ، كَمَا أَنَّهُمْ قَامُوا بِأَعْلَىٰ الْكَمَالَاتِ.)**

ثم نبه رحمه الله إلىٰ أن خصال الإيمان يتفاوت الناس فيها تفاوتـًا عظيمـًا ، وذلك أن الإيمان يزيد وينقص ، ويقوىٰ ويضعف ، وأن أهله ليسوا فيه سواء ، لكنهم في الجملة علىٰ ثلاث مراتب ، أهل الإيمان في الإيمان في الجملة علىٰ ثلاث مراتب :

المرتبة الأولىٰ : السابقون بالخيرات ، والثانية : المقتصدون ، والثالثة : الظالمون لأنفسهم ، فيما دون الكفر

بالله سبحانه وتعالىٰ ، والله عز وجل ذكر هذه المراتب الثلاث في قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فذكر أن ورّاث الكتاب عباد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ثلاث مراتب ، السابق بالخيرات : هو كما ذكر الشيخ رحمه الله ، أو هم ، **(وَهُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَفُضُولَ الْمُبَاحَاتِ.)** فهؤلاء السابقون بالخيرات ، ودرجتهم في الدين أعلىٰ درجة ، ومنزلتهم فيه أعلىٰ المنازل ، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وفضول المباحات ، فهؤلاء السابقون بالخيرات ، يليهم بالمرتبة المقتصدون : **(وَهُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِالْوَاجِبَاتِ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ.)** من قام بما وجب عليه وترك ما حرم الله عليه فهو مقتصد ، ويسمىٰ مقتصد لأنه اقتصر علىٰ الواجب ، وترك المحرم ، لكن لم تنهض همته للتنافس علىٰ الرغائب والمستحبات ، فاقتصر علىٰ الواجبات وترك المحرمات ، مثله مثل الذي قال للنبي صلىٰ الله عليه وسلم لما ذكر مباني الإسلام الخمسة قال (والله لا أزيد علىٰ هذا ولا أنقص) هذا مقتصد مقتصر علىٰ الواجب ، الفرض الذي افترضه الله سبحانه وتعالىٰ عليه ، أما النوافل فإن العبد إن فعلها زادت رتبته وعلا مقامه ، وكثر ثوابه عند الله سبحانه ، وإن لم يفعلها لم يعاقبها الله علىٰ تركها ، لأن الله لم يوجبها عليه ، وإنما الذي يعاقبه الله سبحانه وتعالىٰ عليه هو ما افترض الله عليه ، وأوجبه ، ولهذا قال العلماء (الإيمان إيمانان واجبٌ ومستحب ، فمن ترك الإيمان الواجب عرّض نفسه للعقوبة ، ومن ترك الإيمان المستحب فاته ثوابه ولم يعاقب) فإذن المقتصد ؛ هو الذي اقتصر علىٰ فعل الواجب وترك المحرم .

وكلٌ من السابق بالخيرات والمقتصد كلٌ منهما يدخل الجنة يوم القيامة بدون حساب ولا عذاب دخولاً أوليـًا ، السابق بالخيرات والمقتصد كل منهما يدخل الجنة يوم القيامة بدون حساب ولا عذاب ؛ لأنهم ما تركوا واجبـًا ولا فعلوا محرمـًا ، والمقتصد ترك المستحبات ، والمستحبات إن فعلها العبد أُثيب وإن لم يفعلها لم يعاقب ، فكلٌ منهما يدخل الجنة يوم القيامة بدون حساب ولا عذاب ، وهذا يستفيد منه المسلم فائدة مهمة إذا حافظ علىٰ فرائض الدين المذكورة في الحديث (بني الإسلام علىٰ خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت) إذا حافظ علىٰ هذه الفرائض ، والمحافظة عليها من أيسر ما يكون ، وأما الصلوات فهي في اليوم والليلة خمس مرات ، وأما الزكاة فلا تجب إلا من كان عنده مالٌ يبلغ النصاب ، وهو قليلٌ من كثير أعطاه الله سبحانه وتعالىٰ ، وأما الصيام فهو شهرٌ واحد في السنة ، وأما الحج فهو مرة واحدة في العمر كله علىٰ المستطيع ، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ والحج فرضه الله علىٰ العبد مرة واحدة للمستطيع فمن زاد علىٰ ذلك فهو نفلٌ وتطوع ، فهذه الفرائض التي أوجبها الله ، نضيف إلىٰ ذلك البعد عن المحرمات ، لأن المحرمات إن فعلها عرّض نفسه للعقوبة ، فإذا فعل الواجبات فرائض الدين وتجنب ما حرمه الله سبحانه وتعالىٰ عليه ، ولم تنشط نفسه للمستحبات والرغائب والنوافل ، فإنه بهذا يكون مقتصداً ويكون دخوله يوم القيامة للجنة دخولاً أوليـًا ، بدون حساب ولا عذاب .

أما المرتبة الثالثة فهي مرتبة الظالم لنفسه ، قال : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ والمراد بالظلم هنا ظلم النفس

بالمعاصي والذنوب فيما دون الكفر ، أما إذا ظلم نفسه بالكفر ماذا يكون أمره ؟ ينتقل إلىٰ قسم آخر ، ذكره الله سبحانه وتعالىٰ بعد هذه الآية بآيات ، لما ذكر ثواب أهل هذا القسم ، قال : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَۖ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾

الظلم هنا ظلم الكفر ، فمن كان لنفسه ظلم الكفر بالله سبحانه وتعالىٰ ومات علىٰ ذلك فليس له يوم القيامة إلا النار خالداً فيها أبد الآباد ، فإذن الظالم لنفسه بقوله : ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ هذا ظلمها فيما دون الكفر بالمعاصي والذنوب ، ومن كان كذلك فمآله إلىٰ الجنة ، لكنه قد يصيبه قبل ذلك ما يصيبه من عقاب يطهّر به من رجس هذه الذنوب ، ولهذا لما ذكر الله الأقسام الثلاثة ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ قال ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ الواو تشمل ثلاثة الأقسام ، ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ من هم ؟ الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ، لكنّ السابق بالخيرات والمقتصد يدخلون الجنة دخولاً أوليـًا بدون حساب ولا عذاب ، وأما الظالم لنفسه فإنه يدخل الجنة لكن قد يصيبه قبل ذلك ما يصيبه ، قد يدخل النار ، قد يمكث فيها مدة من أجل أن يطهّر وينقىٰ من الذنوب التي اقترفها وارتكبها في هذه الحياة ثم من بعد ذلك يدخل الجنة كما جاء في ذلكم الحديث في ذكر عصاة الموحدين وصفة إخراجهم من النار وأنهم يلقون في نهر الفردوس وأنهم يحيون بماءه ، والحديث ثبت بذلك عن نبينا صلىٰ الله عليه وسلم في الصحيحين وغيرهما ، الشاهد أن الظالم لنفسه مآله إلىٰ الجنة كما قال الله : ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ لكن قد يصيبه قبل ذلك ما يصيبه من تنقية وتطهير من الذنوب بأن يدخل النار ليطهر من ذنوبه ، ودخول العاصي إلىٰ النار دخول تطهير ، أما دخول الكافر إلىٰ النار فدخوله دخول تأبيب ؛ لأن الكفر والشرك لا تطهره النار ، خبثٌ لا تطهره النار وإنما يدخل صاحبه النار ليخلد فيها أبد الآباد .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلي وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .